عوامل ظهور الدويلات الإسلامية – د جاسم الدرويش

أحدث الإسلام تغييرات كبرى (سياسية – اقتصادية – اجتماعية – ثقافية) في حياة العرب ، وهم المادة الأولى للإسلام وحملة الرسالة الأوائل إلى الأمم الأخرى ، فكانت دولة الإسلام الأولى في عصر الرسالة ثم أخذت بالتوسع حتى غدت تشمل معظم أنحاء شبة الجزيرة العربية وأجزاء من جنوب بلاد الشام عند وفاة الرسول الأكرم (ﷺ) .

وفي بداية خلافة أبي بكر (11–13هـ) بدأت صفحة الفتوحات فشملت أجزاء من العراق والشام ، فلم يحدث تغيير ديموغرافي كبير لأن معظم سكان تلك المناطق هم من العرب ، إلا أن التغييرات حدث في عهد عمر بن الخطاب (13–23هـ) وعثمان (23–35هـ) وعلي (35–40هـ) فقد شملت الفتوحات أجزاء كبيرة من بلاد فارس وجميع بلاد الشام ومصر والنوبة ، ودخلت عناصر جديدة في ظل الدولة الإسلامية مثل الفرس والأقباط .

وخلال العصر الأموي (41–132هـ) فتحت بلاد ما وراء النهر والهند وفرغانة ، وفي الغرب فتحت بلاد المغرب والأندلس ، فدخلت عناصر أخرى إلى في ظل الدولة الإسلامية مثل الأتراك والهنود ثم البربر والقوط ، وكانت قمة امتدادات الدولة الإسلامية في عهد الوليد بن عبد الملك (86–96هـ) إذ امتدت حدودها من بلاد

الصين شرقاً حتى جنوب فرنسا غرباً ، فهل ستستمر هذه الوحدة السياسية في ظل ذلك التنوع الديموغرافي الكبير .

إن من أهم أسباب نجاحات الإسلام بين الشعوب هو تبنيه مبدأ العدالة والمساواة إذ : لا فرق بين عربي وأعجمي إلا بالتقوى ، وأن أكرمكم عند الله أتقاكم .

كانت وحدة الخلافة متأصلة عند المسلمين طيلة القرن الأول الهجري ، فهي وحدة لا تتجزأ ، فمن أجلها جرى صلح الإمام الحسن عليه السلام مع معاوية وذلك حفاظاً على وحدة الجماعة الإسلامية (لذا سمي عام الجماعة الأول) ، ثم إن عبد الله بن الزبير كان أقرب إلى الناس من عبد الملك بن مروان ، ولكن تحت عنوان (وحدة الجماعة) تخلى الجميع عن ابن الزبير ، فسمي (عام الجماعة الثاني) .

إلا أن هذه الفكرة (وحدة الجماعة الإسلامية) أخذت تضعف منذ نهاية العصر الأموي وذلك بسبب أن الأمويين أخلوا بكثير من تعهداتهم تجاه الشعوب الأخرى لاسيما فيما يتعلق بمبدأ العدالة والمساواة ، كما أن التيارات السياسية المتعددة أخذت تنضج أفكارها وانتهجت العمل السري مستغلين هذا المبدأ الإسلامي لمناوئة السلطة المركزية ، وعليه فإن هذا المبدأ الذي يعد من عوامل نجاحات الدولة الإسلامية وتوسعها هو نفسه الذي أخذ فيما بعد يُستغل لإثارة الشعوب مستغلين سوء تصرف الولاة الأمويين .

إن معظم محاولات المعارضة للنيل من السلطة في مقر الخلافة أو بالقرب منها باءت بالفشل وتعرض الكثير منهم للقتل والملاحقة ، وقد أدرك المعارضون ذلك ، وهو ما جعلهم يفكرون بالابتعاد إلى الأماكن النائية التي من الطبيعي أن تكون القبضة عليها أقل من غيرها ، فضلاً عن أن العناصر غير العربية أخذت تستهويها مبادئ المعارضة التي رفعت لواء العدالة والمساواة وأخذت تتكيف مع أجواء بيئة وطبيعة المناطق التي انتشرت فيها وذلك بأن فسحت المجال الأوسع في المشاركة السياسية واتخاذ قرارات الحكم .

ولهذا منذ بداية العصر العباسي أخذت تظهر فكرة حقوق الشعوب (أو ما يسمى بالشعوبية) وهو يوازي ما يطلق عليه الآن بالحقوق القومية والإقليمية ، هذه النزعات غذتها وتبنتها الكثير من التيارات السياسية المعارضة للسلطة المركزية .

ومن هنا كان لابد للخلافة العباسية أن تستجيب لمطالب الشعوب المنضوية تحت سلطانها طائعة أو مكرهه ، ولإشباع النزعات الاستقلالية عن طريق إتباع النظام اللامركزي في الحكم استجابة لمطالبهم فأرسلت لهم التقليد والخلع مقابل البقاء في دائرتها ونفوذها الاسمي ، فنجحوا إلى حد كبير في المشرق الإسلامي فظهرت الإمارات : الطاهرية والصفارية والسامانية والزيارية والغزنوية والخوارزمية (مع بعض الاستثناءات مثل الدولة الزيدية) ، فيما أخفقوا إلى حد كبير في المغرب فظهرت الإمارات والدول المستقلة غير التابعة لهم مثل : المدرارية والرستمية

والأموية في الأندلس والفاطمية والموحدية (مع بعض الاستثناءات مثل الأغالبة والمرابطين) .